منهج الإسلام فى التعامل مع الفنون

للدكتورة

هدى خيرى عوض (*)

مقدمة البحث

الإسلام عقيدة وشريعة ودين دولة غايته الأساسية هو الاهتمام بالإنسان وتهيئة المجتمع له حتى يستطيع أن يعمر الأرض ويعبد الله عز وجل ، وتهدف شريعته إلى حفظ الدين ، والنفس ، والعقل و النسل ، والمال للإنسان ، حتى يحيا حياة رغدة آمنا مطمئنا عابدا الله وحده .

يتسم النظام الإسلامى بالشمولية، فهو يبحث فى السعى إلى تطوير كافة مناحى الحياة من خلال الإنسان ، لذا فقد تضمنت الشريعة القواعد العامة والمبادئ والمثل العليا التى توجه الإنسان فى أدائه لعمله فى كافة نواحى الحياة، ومن بينها أدائه الأعمال الفنية فى إطار يهدف إلى الرقى بمدارك الإنسان وذوقه العام بعيدا عن كل ما هو حرام وخبيث .

يعتبر الإنسان هو حجر الأساس فى البناء التنموى الحضارى ، لذا فإن اكتشاف مواهبه والعمل على تنميتها ورعايتها منذ نعومة أظفاره مسئولية الأسرة والمدرسة والمجتمع بأسره حتى يؤدى المهام والأعمال التى خلقه الله سبحانه وتعالى للقيام بها على أتم وجه . وهذا ما يؤكده التوجيه النبوى الشريف حيث يقول صلى الله عليه وسلم : « أجملوا فى طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما خُلق له » (رواه ابن ماجه) .

وما من شك فى أن واقع التشريع الإسلامى والذى يتعرض لكافة نواحى الحياة بما فيها المجالات الفنية المختلفة ليس مرتجلا ، ولكنه وليد هدف عام ومبادئ متكاملة ذلك لأنه يقوم على أساس موحد ورصيد مشترك من المفاهيم والأفكار والغايات .

مشكلة البحث :

إن الرسالة الهامة التى تحملها الفنون على عاتقها، تستوجب صياغة منهج الإسلام للفنون كإطار من الفكر الإسلامى المتكامل « الأسس والقواعد والمعايير » يهتدى به صانعو الصياغات الفنية لأعمال تسهم بشكل فعال فى بناء الفكر التنموى . وإثراء وجدان المجتمع المسلم .

★ - مدرس بكلية التجارة - جامعة الأزهر - فرع البنات .

أهمية البحث :

تتمثل أهمية صياغة منهج إسلامي للفنون في عدة نقاط من أهمها ما يلي :

١ - محاولة لإثبات مدى قوة وأصالة وعمق الفكر الإسلامي في معترك الحياة المعاصرة وخاصة في مجال حيوي هام مثل الفنون، بمعنى أن القواعد والأحكام الشرعية تساهم في تعميق بناء الشخصية المسلمة ووضع أسس لأعمال فنية ينبغي صياغتها لكي تعبر عن تلك الشخصية فكرا وروحا .

٢ - تشكيل قواعد للبناء الفكري العقائدي بهدف تأصيل مضامين فنية في إطار ثقافي وثيق الصلة بأطر من الفكر الإسلامي ، ويكفي أن أشير إلى أن هذا البناء سيضع حدا للتشتت الفكري لأصحاب الرأي الفني الواعي .

٣ - إن سياق الفكر الإسلامي وما ينطوي عليه من مضامين هو دعائم حماية للذات من الضياع والتبعية الفكرية في ظل تحديات ضخمة في شتى المجالات وبصفة خاصة في عالم الاتصالات .

٤ - إن هذا المنهج بمثابة محاور لتكوين قواعد إيمانية لتصويب أفكار موجودة في مناخ اجتماعي شائك ، ليستبين الحق من الباطل ، فنسلك المنهج القويم من خلال جذور العقيدة الإسلامية قانعين مقتنعين أننا في طريق يقربنا من الله ورسوله .

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى استنباط منهج إسلامي للفنون يمثل إطار عام يوضح لكافة العاملين بالمجالات الفنية المختلفة أطر تجسيد الصياغات الفنية الملتزمة .

وهذا الهدف الرئيسي انبثق عنه هدف فرعي مكمل له ، وهو استنباط عدة معايير « ذات صبغة إسلامية » لبناء المحتوى الفني الملتزم . وهو في كل من جزئيه يضع فكر الأمة الإسلامية الذي أهمل لفترة طويلة مدخلات المنهج الإسلامي في موضعه الصحيح بما يدعم الرقي بأفكار ووجدان الفرد المسلم .

فروض البحث :

هناك علاقة تأثيرية متبادلة بين الفنون والكثير من نواحي الحياة ، بمعنى أن الارتقاء بالفكر والوجدان والسلوك الإنساني ينبع جزئيا من الارتكاز على منهج إسلامي للفنون ومنه تمارس المجالات الفنية تأثيرها بشكل راقي ملتزم .

منهجية البحث :

يعتمد البحث على طريقة الاستنباط بقصد استخلاص مجموعة من القواعد والأحكام والمعايير الشرعية - التى تتلائم مع طبيعة البحث - والتى ينطوى عليها المنهج الإسلامى الشامل .

مصادر البحث :

١ - الدراسات القرآنية والسنن .

٢ - الدراسات الفقهية .

٣ - الدراسات التربوية والأخلاقية والاجتماعية .

محتويات البحث :

تتكون الدراسة من فصل واحد ينقسم إلى مبحثين رئيسيين ، يتناول الأول أسس وقواعد البناء لمنهج الإسلام للفنون ، وهى أربع :

الأولى : سد الذرائع وتستند إلى ركيزتين هما : المسئولية الاجتماعية ، وتبين الحقائق .

والثانية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولها شقين، الشق الأول: الصحوة الفكرية العقائدية ، والثانى : التعليم والتثقيف مقياس وأساس للتقييم السليم .

أما الثالثة : التغيير وقبول الجديد الصالح ويرتكز إلى أربعة محاور هى الكشف عن الذات وفك الحصار الفكرى ، وتفجير الطاقات الإبداعية ذات الانتماء الحقيقى والعالمية جذورها المحلية .

وتتناول الرابعة : المسئولية الفردية - الجماعية . .

أما المبحث الثانى : فيتناول معايير بناء المحتوى الفنى الملتزم وهما: المعيار الأول القيمة الروحية الجوهرية : وينقسم إلى شقين :الأول : روح العمل الفنى الملتزم ، والثانى: بواعث الطاقة الروحية . المعيار الثانى : الأصالة الوجدانية و يستند إلى ركيزتين : الأولى: الاختيار الجيد للعمل الفنى . والثانية : الهدف الفنى الصالح .

محاور البناء لمنهج الإسلام والفنون

المبحث الأول : أسس وقواعد البناء

إننا فى تقديرنا لأهمية الفنون فى حياتنا ، لا يجوز صياغة المنهج الإسلامى الذى يحدد الإطار القيمى لكافة الفنون بوصفه جزءا منفصلا أو كيانا له استقلاليته عن الكيان الاجتماعى والسياسى وغيره المحدد للمجتمع الإسلامى ، فالدين الإسلامى دين الشمول والتكامل لكل أمور الحياة الدنيا والآخرة ، ومن ثم فإن المنظومة القيمية التى يحتويها هذا الدين بين جنباته منظومة واسعة وعريضة وعميقة .

إلا أن الصياغة المنهجية للبحث الذى نحن بصدده لها طابع خاص ، ترتكز على ما أعده الدين الحنيف من مبادئ عامة ومثل أخلاقية راقية تستمد من قواعد أساسية تتكامل لتشمل مضامين ينبغى أن يحتويها التكوين البنائى للأعمال الفنية ، وتشمل الأسس والقواعد والمعايير .

أولا : أسس البناء

١ - العقيدة :

وهى القاعدة الأساسية فى التفكير الإسلامى ، والتى تحدد نظرة المسلم الرئيسية إلى مجتمعه بصفة عامة وإلى أداءه لكافة أعماله الفنية بصفة خاصة ، الأمر الذى يتطلب الرقابة الذاتية واستشعار مراقبة الله فى الدنيا ، والإيمان بالمحاسبة فى اليوم الآخر .

٢ - المفاهيم :

التى تعكس وجهة نظر الدين الإسلامى فى بيان العلاقات وتفسيرها على ضوء النظرة العامة التى تبلورها العقيدة .

٣ - الوجدان :

التى يتبنى الإسلام بثها وتنميتها إلى جانب تلك المفاهيم ، لأن المفهوم بصفته فكرة إسلامية عن واقع معين يفجر فى نفس المسلم شعورا خاصا تجاه ذلك الواقع ويحدد اتجاهه العاطفى نحوه – فالوجدان الإسلامى وليد المفاهيم الإسلامية ، والتى وضعت بدورها فى ضوء العقيدة الإسلامية ، لكى يعمر الوجدان بالقيم وتسمو الروح ، ويرقى السلوك بالعمل على هديها .

وبناء على هذا المحتوى الأساسى فإنه يتضح لنا مدى ارتباط الفنون بالعقيدة ، التى هى مصدر التكوين الروحى ، ومصدر إلهام المسلم إلى الالتزام بمبادئ عقيدته وإلى آداءه أعمال فنية ذات قيمة ومضمون يحوى القيم والأخلاقيات الإسلامية ، يشعره بالعطاء لمجتمعه وتهيأ له فرص الاطمئنان النفسى ، وتلك الخصائص يرتكز عليها ويتشكل من خلالها العمل الفنى الأصيل الذى تتزايد قيمته بمرور الزمن .

كذلك ترتبط الفنون بما يبثه الإسلام فى المجتمع من وجدان قائم على أساس مفاهيمه الخاصة ، والتى ترسى فى وجدان الفنان منظومة من الحب والمشاركة والإحساس بالمسئولية وهو ما نسميه التفاعل مع القيم المجتمعية ، تساهم جميعها فى تجسيد الأعمال الفنية بصدق وعمق وأصالة القيم الإسلامية والتراث الحضارى وهو أحد الغايات من العمل الفنى.

أن ارتباط الفنون بكافة مفاهيم الجمال والتى تنطوى على مضمون أخلاقى واجتماعى لكونه محتوى أساسى يترتب عليه إضفاء أو تشكيل أو بلورة ذلك المحتوى الجمالى يلقى على كاهل الفنان مسئوليته تجاه مجتمعه يلتزم به متجنبا الانحراف عنه .

وفيما يلى أهم القواعد المنهجية التى تم استنباطها من المنهج الإسلامى الشامل .

ثانيا : القواعد والاحكام الاساسية :

سبق أن ذكرت أن المنهج الإسلامى للفنون له طبيعته الخاصة ، يرجع ذلك إلى أسباب عديدة منها ما يلى :

١ - طبيعة العمل الفنى ، لأنه تجسيد لمزيج يربط بين الفكر والإبداع ، وقيم مجتمعية وثقافية شتى ، وعناصر تأثيريه منها الإبهار والإثارة والخداع والتشويق وأساليب للعرض وغيره .

٢ - أننا نعيش فى عالم تسيطر عليه الماديات وتتناهبه النوازع الفردية والمجون والعبث والعدوانية والتقليد الأعمى ، وغيره من النوازع اللاخلاقية ، وأكثر ما نخشاه أن تندس تلك الأفكار الخبيثة والنوازع المسمومة فى جنبات بعض المجالات الفنية .

٣ - على المجتمع الإسلامى ككل وأصحاب الرأى والفكر والفنانين الملتزمين بصفة خاصة - أن يتصدوا للأعمال الفنية الرديئة لنحمى عقيدتنا وتراثنا وعقول الشباب من الالتواء والتجنى على الأصول والانزواء تحت رايات غريبة تنتمى إلى مذاهب وعقائد شتى تبعدهم عن منهج ديننا الحنيف .

... يلى مجموعة من القواعد والمبادئ تتوائم مع تلك الطبيعة الخاصة والتى ... أن نباشر تأثيرها كمنهج إسلامى يهتدى به الفنان الملتزم :

القاعدة الأولى : « سد الذرائع » :

... جع أهمية تلك القاعدة أنها تمثل مجالا رحبا لاستنباط العديد من المبادئ التى ... فى إطارها . تشير هذه القاعدة أساسا إلى تحريم كل ما يؤدى إلى معصية ، فتحرم ... ل والطرق التى من شأنها أن توصل إلى محرمات .

... قول الحق سبحانه : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه . . . ﴾ « الأنعام : ١٢٠ » ... معنى ظاهر الإثم واضح المحرمات ، وباطنه الشبهات منها الذرائع ، وهى المباحات التى ... صل بها إلى المحرمات [1] .

... ويتأكد نفس المعنى من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « دع ما يريبك ... لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » (رواه الترمذى) .

... وتستند هذه القاعدة إلى حكم شرعى أرساه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ... الحلال بين والحرام بين ... » ويرتبط هذا الحكم بنظرة ديننا الحنيف إلى الذكاء الإنسانى ... على أنه قادر على اكتشاف الحقيقة ومعرفة الصواب والخطأ ، الحق والباطل ، الخير والشر ، ... الحلال والحرام . ومن هذه القاعدة يمكن أن نستنبط منها ركائز العمل الفنى الملتزم (*) .

الركيزة الأولى : المسئولية الاجتماعية :

... وهى استشعار الفنان الملتزم بأهمية الدور الذى يؤديه مؤثرا فى غيره ، ومن ثم فإن ... يرقى بمدارك المتلقين لهذه الأعمال كونه محاسبا فى الدنيا والأخرة لقوله تعالى : ... اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ « التوبة / ١٠٥ » ، ولن ... ذه لهذا الأمر ، إلا إذا أخلص العمل لوجه الله سبحانه دون سعى وراء أهداف ... بعاد عما يرضى الله ويرضى ضميره ، وهذا المقصد هام وبصفة خاصة فى الأعمال

... العمل الفنى الملتزم : هو ذلك العمل الذى يحوى مضامين من الفكر والقيم الأخلاقية ... الاجتماعية وأبعادا مختلفة لرؤى فنية تتوافق مع هذه المضامين ، على أن يتم الاختيار لأفضل البدائل ... الفنية المطروحة لبناء محتوى ذلك العمل الفنى .

الفنية المرئية والمسموعة فقد يكون ما يعجب الناس لا يرضى الله عنه ، يقول الحق : ﴿ وادعوه مخلصين له الدين ﴾ « الأعراف / ٢٠ » . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى « الإخلاص سر من أسرارى استودعته قلب من أحببته من عبادى » (٢) .

الركيزة الثانية : تبين الحقائق :

بمعنى تبين المغزى ، مغبة ما يؤول إليه أمر بعض الأعمال الفنية المشتبهة من وقوع فى الحرام ، وفعل الشبهات يقرب من الحرام ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أفمن كان على بينه من ربه .. ﴾ « هود /١٧ » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

ولنا أن نتساءل عن منافذ التعمية والتضليل التى تؤدى إلى المشتبهات فى حقيقة الأمر أنها فى بعض المجالات الفنية المرئية والمسموعة متسعة ومتشابكة حتى ليصعب على المرء أن يصل إلى أبعادها ، ومع هذه الصعوبات يجوز لنا أن نجملها فى بضع منافذ هامة هى :

اتباع الأهواء والاستهتار بالقيم الدينية والمجتمعية ، الماديات ، الخواء الفكرى والتسطيح .

ولعل أهم ما نسترشد به ويتناسب مع هذا التحليل هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أخاف على أمتى من بعدى ثلاثا : ضلالة فى الأهواء ، واتباع الشهوات فى البطون والفروج ، والغفلة بعد المعرفة » (٣) .

وفيما يتعلق بجانب اتباع الأهواء والاستهتار بالقيم الدينية ، المجتمعية : يمكن أن نقول :

- أن تلك الأعمال لا يمكن أن تندرج تحت أى مسميات فنية لقول الحق سبحانه : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى ... ﴾ « القصص/ ٥٠ » وقوله : ﴿ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ « الأنعام /١١٩ » . واتباع الأهواء بداية ضلال وتجاوز وتعتيم على حقائق هامة كثيرة منها :

١ - إن القيم الأخلاقية والمعتقدات والتراث أهم ما تمتلكه الشعوب من ثروات تستمد منها الكثير من دوافع التجديد للعزائم وبث الهمم وإحياء موات القلوب ، فكيف يكون لهؤلاء العابثين طمث المعالم وتبديد الحقائق ونحن أحوج ما نكون للتنوير ليتضح لنا معالم التحضر الفكرى .

٢ - إننا فى أشد الحاجة إلى الطاقات والموارد المادية نحشدها لتحقيق ما هو مفيد فى مجالات فنية أدرك القائمون بها حقيقة رسالتهم .

٣ - الإساءة إلى « الذوق أو الحث الفنى » وهو عبارة عن عصارة فكر وتراث حضارى عقائدى استقاه المسلم على مر السنين ، ونريد أن يكون له زخرا يستقى منه على مدى الحياة أدوات للتمييز بين الجيد والردىء من الأعمال الفنية .

وفيما يتعلق بالماديات : وهو اتجاه هدام يجتاح مجتمعاتنا الإسلامية ، وهو أهم سمات هذا العصر ، والذى من شأنه أن يؤدى إلى :

١ - طغيان الطموحات المادية للفرد ، وتفضيل الكسب المادى السريع ومن ثم سطوة الأعمال الفنية الخبيثة التى قد يجرؤ البعض على اختيارها ومن ثم يقع فى الحرام . يقول الحق سبحانه ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾ « المائدة / ١٠٠ » .

٢ - إن النتيجة الحتمية لهذا المنحى السيئ هو تقديم أعمال فنية هابطة تؤذى الذوق العام، وتيسر سبل الفساد وتهيئ الأنفس للإباحية ، لأنها أعمال مجردة من المبادئ والقيم والمضمون . نسى هؤلاء المشاركون فى تلك الأعمال توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اتقوا الله واجملوا فى الطلب فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ما حل ودعوا ما حرم » (رواه ابن ماجة) .

٣ - إن التحرى عن أعمال فنية راقية ملتزمة ليست محل اهتمام من ماتت ضمائرهم ونسوا دور الفن ورسالته ، واعمتهم الماديات وتجاهلوا أنهم يخاطبون عقولا ويشكلون بشكل أو بآخر سلوكيات وقيم مجتمعية .

أما فيما يتعلق بالخواء الفكرى والتسطيح : فإن بعض المجالات الفنية تتجه إلى استخدام عناصر الجذب المشروعة فى عرفهم ، على سبيل المثال رقص وأغانى خليعة،أعمال

بهلوانية خاوية ، إسفاف وغيره وذلك بهدف التعتيم على ما يقدمون من خواء فكرى وتسطيح وغيره . نسى هؤلاء قول الحق سبحانه ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ « الإسراء /٣٦ » ، وهو الأمر الذى يدلل على عدة حقائق هامة هى :

١ - عدم معايشة هؤلاء لمشكلات وهموم مجتمعاتهم وما أكثرها وما أقساها ، وهى نبع فكر للكثير من الأعمال الفنية ذات المحتوى والمضمون الجيد .

٢ - إن أحاسيس هؤلاء بعمق وأصالة التراث الثقافى والعقائدى وأبعاده الاجتماعية قد تبلدت ، لذا فقد أصابهم سقم وعقم فنى أبعدهم عن أية أعماق تبشر بأمل فى العطاء الفنى .

٣ - الذين تصدوا لتلك الأعمال همهم الأوحد هو الكسب المادى السريع وهم يلبسون أعمالهم بمسميات استحدثوها لتدارى سوءاتهم ، ولكن هيهات فالحقيقة سيراها الجميع إن آجلا أو عاجلا ، وسيخرج هؤلاء بإذن الله من الحقل الفنى خائبين .

القاعدة الثانية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

يستند تحقيق هذه القاعدة إلى شقين :

الشق الأول هو : الصحوة الفكرية العقائدية : إن عالم الفن ، عالم شائك ينفصل فى جزئيات عديدة عن العالم الأخروى ، ويلتصق فى بعض المجالات الفنية بتحقيق عناصر النجاح وهى الكسب المادى ، وعناصر الإبهار والإثارة والتشويق وتحديث طرق العرض وخلافه تمثل فى مجملها عناصر جذب هامة ولا غبار عليها إذا كانت تخدم المضمون الفنى الملتزم ، أما ما نخشاه هو أن تسخر تلك العناصر إلى إثارة الملذات الحسية . أو دفع نوازع العنف والتقليد الأعمى فى المجتمعات الإسلامية ، ولعل خطورة تقديم تلك الأعمال الخبيثة يتضح بالنسبة لبعض المجالات الفنية المرئية والمسموعة تتمثل فيما يلى :

أولا : إهدار طاقات الشباب خاصة والمجتمعات الإسلامية عامة فى أفكار خبيثة قد تصرف الضعاف منهم عن عقيدتهم وكذلك عما تواجهه مجتمعاتهم من مشكلات وما تطمح فيه من أمال تستوجب بذل الرخيص والغالى من عصارة الفكر والجهد والانصهار فى بوتقه الانتماء الدينى والوطنى .

ثانياً : إهدار الموارد المادية الضخمة فى أعمال تتنافى مع المبادئ والأخلاقيات الإسلامية ، وما من شك فى أن المجتمعات الإسلامية وهى فى طريقها لتحقيق عناصر التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى أشد الاحتياج إلى تلك الموارد .

وأمام تلك الاتجاهات الهدامة للقيم الأخلاقية والمجتمعية ، ينبغى أن نلتزم بما أمرنا الحق سبحانه به فى قوله : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ « آل عمران : ١٠٤ » وأحد مقاصد تلك الدعوة إيجاد نوع من الصحوة الفكرية العقائدية ولعل أهم دعائم تلك الصحوة يتضح فيما يلى :

١ - الدعوة بالمعروف إلى اتباع منهج الله فى الأعمال الفنية هو صمام الأمان فى المجتمعات الإسلامية ، لأن قوة الصلة بالله والطاعة له تكون مدعاة لاختيار وتنفيذ أعمال فنية ملتزمة .

٢ - إن تقدير المسئولية الفنية ينحو بالعاملين فى الحقل الفنى إلى الإصلاح وهو المقدمة للوقاية من الانزلاق فى متاهات خبيثة .

٣ - على أهل الدين فى المقام الأول تبصير الشباب وعامة المجتمع بأهمية نبذ تلك الأعمال وتحقيرها حتى يكون فشلها وفشل العاملين بها هو المصير المؤكد .

٤ - أهمية دور المفكرين والنقاد الفنيين فى التصدى لتلك الأعمال حرصا منهم على تأكيد دورهم النافع تجاه مجتمعاتهم موضحين أن الغرض الخبيث لتلك الأعمال يستوجب استبعادها من الحقل الفنى .

الشق الثانى : التعليم والتثقيف مقياس وأساس للتقييم السليم :

إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمرا إلهيا ، إلا أن الغرض منه لن يتحقق بفعالية إلا إذا واكبه التبصير بدور الفن وأهميته إذا كان فى إطار من الفكر الإسلامى ، وذلك حتى تهيأ العقول والقلوب وتستجيب عن وعى للتوجيهات الدينية وتتضافر معها ، ولنا أن نسترشد بقول الحق سبحانه : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ « الأعراف : ١٨١ » . والمراد فى الآية هذه الأمة المحمدية لحديث شريف « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله »[٤].

إن التمسك بشرع الله قولا وعملا يتطلب إيجاد نوع من الوعى والتثقيف يتعلق

« بالحث الفنى الشامل » كمفاهيم ومعايير للتقييم لها إطار من الفكر الإسلامى تدرس وتبث عبر أجهزة الإعلام المختلفة ، وهذا يؤكد أهمية الترابط المنطقى والفكرى بين مقتنيات العصر وفنونه ومضمون الفن الملتزم يستهدف خلق ذلك الحث الفنى الواعى ليكون وسيلة للنقد الفنى من جهة ووسيلة للنقد الهادف من جهة أخرى . وبمعنى آخر فهو مسلك للتخطيط العلمى للدفاع عن المعتقدات والتراث الحضارى وغيره . وهو أمر سيؤدى بالضرورة إلى اتجاه المجتمعات الإسلامية إلى نبذ واستئصال الأعمال الهابطة ، أى الإيمان بالمنهج والتخطيط للعمل به واقعيا .

ولعل أهم المقومات التى يستند إليها تكوين « الحث الفنى » هو ما يلى :

١ - أن الفنون جزء أصيل من ثقافة الأمم وهى أحد مقومات الفكر التنموى الذى ينبغى أن يحوى مضامين عن اهتمامات ومعتقدات وتراث وآمال وآلام الأمم فى إطار فنى متوازن .

٢ - أن الفنون لها دور تمارسه ولو بشكل جزئى كقوى محركة لإرساء مزيد من عناصر الانتماء العقائدى والعصمة من محاولات التبعية الفكرية ، وذلك بالإيمان بالأصالة الثقافية والهوية المتميزة .

٣ - على القائمين بتدريس المناهج الغربية للفنون المختلفة أن يقدموا الرؤية الفنية الإسلامية من جهة ، والرؤية النقدية الإسلامية للمناهج الغربية من جهة أخرى ، ذلك أن إمكانات النقد لا تكتمل إلا من أهل العلم ، وذلك حتى يرتبط الدارسون بروح عقيدتهم وكذلك بجوهر الفن الأصيل ، فيكون ذلك حائلا دون الانصهار فى بوتقة الثقافات المخالفة لروح ديننا الحنيف .

٤ - بلورة مناهج « للتذوق الفنى » تستوعب متغيرات العصر وتأثيراته ومؤثراته الخفية . على أن يتم التعامل مع هذه المتغيرات والفنون المستحدثة من موقع المعتز بمنهاجه الإسلامى وفلسفته وقيمه ، وما أحوجنا فى هذه الأيام أن نستعيد ثقتنا فى أنفسنا وننطلق من أرضية عقائدية صحيحة .

٥ - بيان خطورة المفاهيم الفنية الغربية التى تنشر عن طريق وسائل الإعلام المختلفة ، ذلك لأنها صيغت فى إطار بعيد عن إطار الفكر الإسلامى بمعنى أن أهدافها ومضمونها والوسائل الدعائية التى تبتدع فى إطارها تبعد بنا كثيرا عما ننشده .

٦ - إن بناء فكر يدعمه « الحث الفنى » فى إطار إعادة بناء القيم الدينية فى حاجة إلى

إسهام حقيقى من جانب أجهزة الإعلام المختلفة لبث مفاهيم صحيحة تستمد عناصرها من الفكر والمنهج الإسلامى .

القاعدة الثالثة : التغيير وقبول الجديد الصالح :

لعل خير ما نبدأ به الحديث هو قول الحق سبحانه ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . ﴾ « الرعد / ١١ » . أى أن الله سبحانه يساند من يبدأ بالتغيير إلى الأقوم والأصلح ويبادر إلى التصويب والصواب . وديننا الحنيف إذ ينشد هذا التغيير؛ لكونه أحد سمات الفكر الإبداعى الذى لا يتسرب إليه أدنى شك فى القدرات والطاقات المؤيدة بقوى عقائدية وثقافية وحضارية ، تلك هى القلاع الحصينة التى يستقى منها الفنان المسلم بذور التغيير إلى الأصلح . لذا كان على الفنان الملتزم أن يتحقق من المواقع الفكرية الضعيفة والتى يمكن للأفكار الغربية أن تتسلل منها وتحدث الشروخ وتستنزف الطاقات فيحاول مجاهدا أن يبتعد عنها .

ولعل أهم المحاور التى يمكن من خلالها أن يتم التغيير المنشود ما يلى :

المحور الأول : الكشف عن الذات :

يقول الحق : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . . ﴾ « المنافقون : ٨ » وذلك الكشف لن يتحقق إلا إذا اعتز الفنان بتراثه العقائدى والحضارى والفنى النابع من روح الإسلام وهو بمثابة شعاع داخلى يقتبس منه لأحداث التغيير الواعى الإيجابى الذى لا يقتصر إطاره على المظهر المحدود ، بل يستند بالأساس إلى المضمون ، أى أنه تغيير ذو هدف هو إنماء وإثراء الفكر بما يحفز الكتاب والمفكرين على كتابة أعمال فنية فى إطار له صبغة إسلامية يحتويها أو تحتوى عليه بما يضفى على تلك الأعمال تلك القيمة الروحية « الجوهرية » (*).

المحور الثانى : فك الحصار الفكرى :

يجدر الإشارة إلى أن تحقق المحور الأول سيواكب تحقق المحور الثانى ، وهما جزء من مسيرة الصحوة العقائدية الفكرية المنشودة ، وهى أحد الدعائم الفكرية التى ينبغى أن يدرك مؤيدوها ما يمكن أن تتعرض له بعض الأعمال الفنية من إجهاض لمضامين الفكر الإسلامى وعليهم أن يحاولوا مجاهدين لإحياء تلك المضامين ، ذلك لأن مسيرة فك

★ - سيتم الإشارة إلى هذه القيمة فى المبحث الثانى .

الحصار الفكرى تتصدى لها عقبات وعراقيل لابد من اجتيازها بأسلوب علمى مخطط يحدوه التطبيق العملى فى إطار إسلامى ، يستند فيه أساسا إلى القيم الدينية كقوة دفع لتنحية الكتابات والأعمال الفنية التى تفتقر إلى روح الإسلام وإطاره الفكرى واتخذت من أفكار الغرب ومعتقداته رموزا للتحضر ، ومن سياق أعماله الفنية منهجا بدعوى أنها الأحدث ، وفى الواقع أنه تقليد أعمى وإغفال للتراث الفكرى والعقائدى ، ولسنا ضد تغيير التكنيك الفنى بما يحقق المتعة والإبهار للمتلقين لهذه الفنون ولكننا ضد الأفكار الخبيثة والتقليد الأعمى الذى يطوى فى جوانبه الاضمحلال الخلقى .

ولقد هدم القرآن الكريم التقليد ، ورفض إيمان المقلد وشنع على إيمان المقلدين (٥) فقال ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ « الأعراف /١٧٩ » .

وأنكر ديننا الحنيف على الإنسان أن يغفل عقله ، ويهمل فكره ويأبى على الفنان المسلم أن يفنى فى غيره ويذوب فى بوتقة أناس يختلفون عنا إيما اختلاف ، الأمر الذى يؤدى إلى استنزاف طاقات فكرية وإهدار موارد مالية فى أعمال مشوهة مضللة .

المحور الثالث : تفجير الطاقات الإبداعية ذات الانتماء الحقيقى :

الحقيقة تؤكد أن الطاقات الإبداعية فى مجال الأدب الفنى وغيره من المجالات موجودة دائما . ولنبدأ بإعطاء الثقة والحافز المعنوى والمادى . والحق أحق أن يتبع من الجهات المسئولة ، وهو إعطاء التشجيع والاهتمام والرعاية لطاقات فكرية لا ينبغى أن نبددها بل يجب أن تستجمع وتحفز لتعطى ما لديها طاقة وجهد ينتمى لهذا المجتمع الإسلامى . ولا شك فإن مسيرة الصحوة العقائدية الفكرية تحتاج إلى هذا الدعم لتدعيم الأعمال الفنية القيمة .

واستقراء التاريخ يؤكد مدى ارتباط ازدهار الفنون بازدهار المضامين الأدبية والفلسفية التى صاغها أصحاب المواهب ذوى الانتماء الصادق عقائديا وحضاريا .

والإسلام يشجع إطلاق الطاقات والقوى الإبداعية ، ويعتبر كل نشاط يبذل لوجه الله ومحققا لأهداف الحياة عملا يثاب عليه يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ « التوبة : ١٠٥ » .

وقد ذهب تقديس القرآن الكريم لحرية الفكر لمدى بعيد ، وكفى بالقرآن فخرا أن

أسلافنا الأوائل الذين فهموه حق الفهم وآمنوا به أصدق الإيمان ، قد بلغوا بحرية الفكر أعظم مدى ، حين قرروا أنه إذا تعارض العقل مع النقل ، وجب تأويل النقل بما يتفق مع العقل ، وبهذه الحرية الفكرية البالغة كانوا أئمة الهدى ، وأعلام الفكر ، ومفخرة الزمان .. ولا عجب فالحق سبحانه يقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى . . ﴾ « يوسف : ١٠٨ » .

المحور الرابع : العالمية جذورها المحلية :

تتفاعل كافة الفنون مع مجتمعاتها ، بحيث تكون نسيج مجتمعى منسجم الألوان ، وإذا لم يحدث هذا الاندماج أصبح النسيج ذو ألوان منفرة تبعث على الاشمئزاز .

الفنون هى المرآة العاكسة لصنوف مختلفة من الفكر ، ينبغى أن يبعث روح الأمة ويجدد الآمال ويساهم فى تشكيل الواقع والمستقبل الأفضل . والحق أن الفنون ساهمت بشكل أو بآخر على مر العصور فى إزكاء تلك الروح . وإذا تقاعست بعض المجالات الفنية أحيانا . فإنه يمكن بالتخطيط العلمى من جهة وبالنقد الواعى من جهة أخرى يقوم بكل منها نخب من المفكرين والنقاد أن تصحح الأوضاع الشاذة .

ولعل تقدير الأديب الكبير نجيب محفوظ ووصوله إلى العالمية وحصوله على جائزة نوبل يعطى الدلالة الواضحة على أنه غاص فى أعماق المحلية بكل أبعادها ، فكان جديرا بالعالمية ، والفنون لها جذور متنوعة هى مجموعة من الأطر الفكرية والثقافية والعقائدية ، وهى نبع فياض بالعطاء لمن أراد أن ينهل منه .

القاعدة الرابعة : المسئولية الفردية - الجماعية :

إن ما يستحدثه العلم من تقنية وتستخدم فى المجال الفنى لتحقيق الهدف والمضمون الملتزم [★]، مسلك لا غبار عليه لمواكبة التقدم واستمرارية التحديث ، أما إذا تداعى الهدف ونحى المضمون جانبا ، وأصبحت أساليب التعمية لها السبق فى تقديم أعمال مخلة بالآداب فإن الوزر يتحمله القائمون بتلك الأعمال لأنه كان بوسعهم أن يحسنوا الاختيار والعمل على وفاق الأوامر الإلهية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا

★ - المضمون الملتزم : يقصد به الإطار الأخلاقى الذى ينطوى على دعوة للصحوة الفكرية التنموية ذات أطر إسلامية فى بناء المجتمع المسلم .

وسعها ﴾ « البقرة/٢٨٦ » ومن ثم كانت المسئولية الفردية فى تحمل الإثم بكل أبعاده وهو ما يؤكده قول الحق سبحانه فى مواقع كثيرة منها : ﴿ ولا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ « البقرة /١٢٣ » . ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ﴾ « الانفطار : ١٩ » . ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى . . ﴾ « فاطر : ١٨ » و « الأنعام : ١٦٤ » . هذا عن المسئولية الفردية أما عن المسئولية الجماعية أو « النزعة الجماعية » وهى إحدى خصائص الفقه الإسلامى [٦] :

اتفق علماء المسلمين أن الأحكام الشرعية سواء أكان مصدرها النص أم الاجتهاد لا يراد بها إلا تحقيق مصلحة الخلق فى المعاش والمعاد ، كما يقول ابن القيم فى إعلام الموقعين ، ويقول أيضا إذا تأملت شرائع دين الله التى وضعها بين عباده وجدتها لا تخرج عن تعطيل المفاسد الخالصة والراجحة بحسب الإمكان ، وإن تزاحمت عطل أعظمها فسادا بتحمل أدناها .

وهذه القاعدة يساندها مبدأ أرساه الرسول الكريم - فيما روى عن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » ، المعنى : الضرر خلاف النفع والضرار من الاثنين ، فالمعنى ليس لأحد أن يضر صاحبه بوجه ، ولا لاثنين أن يضر كل منهما بصاحبه ، ظنا أنه من باب التبادل ، فلا إثم فيه [٧] .

نستخلص مما سبق تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، فنفع الجماعة مقدم على نفع الفرد عند التعارض ، وفى أحيان كثيرة قد تتعارض مصلحة المجتمع مع مصلحة الأفراد ، ذلك أن رسالة الفن ودوره الهام يمارسه ولو بشكل جزئى فى تحقيق الصحوة الفكرية التنموية ذات الإطار العقائدى . هدف من صميم احتياجات المجتمع الإسلامى ، الذى يتطلع إلى تبين هويته وهو أمر يتطلب حقن كافة الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية « بمدخلات المنهج الإسلامى » من عقيدة وفكر وقيم ، وتنظيم وسلوك وأسلوب عمل .

وهو هدف صعب المنال إذا لم تتكاتف الجهود لتحقيقه . والتحرر من كافة أشكال التبعية الفكرية يمثل أحد محاور تحقيق ذلك الهدف من منطلق المسئولية الجماعية ، يقول الحق سبحانه : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ « الأنفال / ٢٥ » . ويأثم الجميع إذا لم يتحمل كلٌ مسئوليته فى موقعه ، وبصفة خاصة الأجهزة الحكومية

المنوط بها رقابة الأعمال والمصنفات الفنية ، والتأكد من قيام الأفراد وكافة الهيئات التابعة لوزارة الثقافة والإعلام بالمسئولية كاملة ، وأساس ذلك قوله تعالى ﴿ ولتسألن عما كنتم تعملون ... ﴾ « النحل : ٩٣ » .

المبحث الثانى

معايير بناء المحتوى الفنى الملتزم

من المعروف أن الفن الهابط يحمل فى طياته الخواء الأخلاقى والسطحية الذهنية واستهداف الكسب المادى السريع ، أى أنه يفصل المسلم عن قيمه وأخلاقياته الإسلامية والمجتمعية والتى تمثل حصون الحماية من التردى والهبوط . ناهيك عن التأثيرات السيئة التى ينفثها ذلك المحتوى السيئ فى المجتمع بالسلب لنشر روح العبث والاستهتار بالقيم الدينية .

وحتى لا ننجرف فى تيارات فنية تحمل الخواء والعبث ، كان من الأوفق أن نستخلص عدة معايير لبناء المحتوى الفنى الملتزم .

وما من شك فى أن تحديد معايير أو مقومات للأعمال الفنية ليست بمادة للبحث فى هذا المقام لأنها بطبيعة الحال تدرس فى كافة الجهات المختصة ولها من الأسس العلمية والمنهجية المناسبة لأى منها .

إلا أن المعايير التى حاولت الباحثة استخلاصها افرزتها طبيعة البحث نفسه ، لأنها تتصل اتصالا وثيقا بالقيم الإسلامية ومضامينها ، التى تنبعث من نظامه الأخلاقى الأصيل وقواعده الراسخة ، أى أنها معايير ذات « صبغة إسلامية » ، لذا فإن بناء المحتوى الفنى فى مجمله يستهدف أن يتجه كافة العاملين بالمجالات الفنية المختلفة إلى إعادة كتابة صياغات الأعمال الفنية بحيث تصفى من كافة الشوائب الدخيلة والمعادية لفكر وروح الإسلام ، حريصين فى ذات الوقت ألا تتخلف تلك الأعمال عن إنجازات التكنيك الفنى التى توصل إليها التقدم العلمى فى إطار المعايير العلمية الموضوعة ، بحيث يكونوا سلسلة مترابطة ذات حلقات تتفاعل لإنتاج أعمال فنية ملتزمة بإطار من الفكر الإسلامى .

ومن الجدير بالذكر أن استيعاب المنهج الإسلامى للفنون وما أفرزه من معايير للأداء

الفنى الملتزم سيضع حدا للتشتت الفكرى والاجتماعى الذى قد يتعرض له الفنانين الملتزمين الحريصين على تقديم أعمال تحتوى القيم الأخلاقية الإسلامية دون ما تطرف فى صياغة عصرية تجسد أهم احتياجات المجتمعات الإسلامية ألا وهو الارتقاء بفكر ووجدان المتلقين لهذه الفنون . ويتضح أهمية إبراز تلك المعايير فيما يلى :

١ - أنها تشكل جزءا هاما من نسيج البحث ، كذلك تنسجم فى مغزاها مع المغزى النهائى المستهدف .

٢ - أن المضامين التى تحتويها تمثل كيان لا غنى عنه لأى عمل فنى متميز لكونها بمثابة ضوابط إسلامية للأعمال الفنية فى إطار عقلى ونفسى واجتماعى .

٣ - أنها بمثابة جدران أو سياج حماية من ضياع الذات والتعرض لخطر الذوبان فى عقائد وأخلاقيات مجتمعات نختلف عنهم أيما اختلاف .

٤ - إن صياغة معايير إسلامية لبناء المحتوى الفنى الملتزم تتكامل مع المعايير الموضوعية كموازين صقل فنى وترجيح المضامين المتميزة بما تحويه من قيم خلقية ، ومفاهيم لها أطر إسلامية واضحة المغزى تغطى رؤى واضحة المعالم لما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى الملتزم . وفيما يلى نعرض للجزء الثانى من محاور البناء للمنهج وهو :

ثالثا : المعايير الإسلامية لبناء المحتوى الفنى الملتزم :

المعيار الأول : القيمة الروحية « الجوهرية » :

يتكون هذا المعيار من مزيج يربط بين شقين أساسيين هما :

الشق الأول : روح العمل الفنى الملتزم :

تعارف أهل الفن على إطلاق كلمة « الروح » على القيمة الجمالية ذات المضمون الفنى المتميز ، لذا نجد فى مجالات فنية عديدة أن الروح لها مدلول وقيمة تعبيرية يبحث الفنان جاهدا ساعيا بكافة الوسائل لإبرازها ، ذلك لأن تلك القيمة توضح إلى أى مدى تم الامتزاج بين وجدان وفكر الفنان وأساليبه وأدواته وقدراته على تجسيد وإبراز ما يعتمل بداخله ، بحيث تصبح خاماته طيعة تنفذ ما حواه الوجدان وما صوره الفكر .

بمعنى آخر فإن جمال المضمون وبراعة تجسيده تعطى للعمل الفنى قيمة حقيقية ورؤيا صادقة .

كذلك فإن لحظات الإلهام وما تفرزها من ابتكار فنى سبقته مراحل مختلفة من الاحتضان والتفكير تمثل مكنون للروح ولو بشكل جزئى .

ولعلى أجد فحوى ما أقصده فى قول الحق سبحانه : ﴿ الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .. ﴾ « طه / ٥٠ » . والمعنى [٨] : إن الله سبحانه أبدع كل شيء خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه . وبناء على ما سبق نجد أن الأعمال الفنية إذا ما افتقدت لتلك القيمة الروحية « الجوهرية » كانت بلا روح أى بدون قيمة ، غالبا ما تكون عوامل فشلها واضحة، يتضح ذلك جليا لأهل الفن المتخصصين ولغيرهم من ذوى الحث الفنى . نظرا لافتقاد العمل للروح ومن ثم لقيمته .

وإذا كانت الروح الطيبة لا يمكن أن تحجب عن العناية الإلهية ، فكذلك الأعمال الفنية ذات القيمة الروحية « الجوهرية » لا يمكن أن تحجب عن وجدان وعقول كافة المشجعين للفن الراقى الملتزم .

إذن لابد أن يكون للعمل الفنى عطاء قيمى يثرى العقل والوجدان بحيث يكون له مردود إيجابى على المجتمع الإسلامى ككل .

الشق الثانى : بواعث الطاقة الروحية :

الروح سر من أسرار الله عز وجل ، ولا يعلم حقيقتها إلا هو ، يقول الحق سبحانه ﴿ قل الروح من أمر ربى ... ﴾ « الإسراء : ٨٥ » إلا أن ما ذكرناه آنفا - فى الشق الأول - يدلل على أن الروح هى المحرك لمكنون النفس البشرية فتتجلى على الأعمال بالعطاء القيمى والأعمال الفنية التى تفقد ذلك العطاء تذهب هباء ... ولكن ما نخشاه هو التأثيرات السلبية التى غالبا ما تحويها تلك الأعمال . وإذا كان الأمر كذلك ، والروح هى المحرك والجسد هو الأداة فإن الأمر الهام هو إذكاء الروح وتنقيتها من الشوائب بالصقل والتهذيب أى بث « روح الإسلام » ، وهو ما يؤدى إلى إثراء القيمة الروحية الجوهرية وهو أمر يحتاج إلى تحقيق هدف أساسى هو « دفع الطاقة الروحية » لخلق تلك القيمة ، وسيتحقق هذا الهدف نتاج لعدة عوامل تتشابك معا لتحقيقه فى إطار من الفكر الإسلامى ولعل أهم الأسباب التى تتضافر لتحقيق هذا الهدف هو ما يلى :

١ - تعميق أخلاقيات الإسلام وقيمه المتميزة منذ النشأة الأولى .

٢ - تأصيل العمل الفنى بحيث يستوعب روح الإسلام وذلك لعبء وضخامة الرسالة التى تحملها الفنون فى طياتها تأثيرا فى المجتمع .

٣ - أهمية النقد الفنى الهادف ومواجهة العابثين وذلك من منطلق أساسى محورى وهو الانتماء (بمعناه الواسع) عقائديا ووطنيا لتشجيع الأعمال الفنية الملتزمة .

٤ - الثقة بالنفس هى مولد « الطاقة الروحية » تستمد من محتوى الثقافة الإسلامية والتطلع إلى تحقيق الذات .

٥ - التخطيط العلمى فى إطار إسلامى ، لأن القيم التى توجه هذا التخطيط تدفع بالعمليات التنفيذية للأعمال الفنية الملتزمة لإيجاد القوة الروحية .

المعيار الثانى : الأصالة الوجدانية :

العمل الفنى كأى عمل إنسانى يتطلب جهدا وفكرا قد يصلا بصاحبها إلى مرحلة الابداع ، وقد لا يبلغها . ومن المؤكد أن عوامل كثيرة تتشابك محصلتها هى الإجادة والإتقان . وهو مسلك يسعى المسلم إليه جاهدا لكى يقربه من ربه ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » رواه البيهقى (٩) .

ولعلنا نجد عناصر الاتقان والإجادة ما زالت تتألق فى فنون قديمة منذ آلاف السنين، تمثل آيات فى الروعة والجمال وما زالت تبهرنا وينشرح لها صدورنا . هذا عن القديم ، أما عن المجالات الفنية المرئية والمسموعة والتى أصبحت جزءا من مقتضيات العصر ، ولديها من وسائل الإبهار والإثارة والخداع ، وأنواع التكنيك الفنى الذى يواكب العصر تحديثا وتنويعا وسرعة وصول ، هذه الفنون تخاطب العقول وتشكل السلوك والوجدان ، فالأمر إذن جد خطير ، ذلك لأن عناصر التبعية الفكرية والاقتصادية تحيط بمقدرتنا ، ومن المؤكد أن للفنون دور هام تمارسه مؤثرة بشكل مباشر وغير مباشر لأنها كانت ومازالت تجسيد يعكس طموحات وآمال ومعاناة الشعوب ، ولكى تؤدى الفنون رسالتها عن عمق وتأصيل وبدون تسطيح ينبغى أن تستند إلى ركيزتين هما :

الركيزة الأولى : الإختيار الجيد للعمل الفني :

إن خير ما نسترشد به هو ما روى عن رسول الله : « إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها » (١٠) .

وإذا كان الأ مر وهو صياغة الأعمال الفنية يحتاج إلى التعميق وليس التسطيح ويحتاج فى الإعداد والتنفيذ فى كل مراحله إلى فكر ورؤيا واضحة يتضح لنا اذن أن الحاجة تشتد فى إطار المنهج الإسلامى إلى النفس السوية ، التى تتحرر من العبودية إلا لله وحده . فتتجه بخطوات ثابتة ونية خالصة ، رغم ما تواجهه من مصاعب إلى أعمال فنية جادة وملتزمة تحقق ما يعول عليها فى المجتمعات الإسلامية من مسئولية ، وما ينشده أصحاب الرأى والفكر من آمال . من الواضح إذن إن الاختيار الجيد للأعمال الفنية الملتزمة يحتاج إلى عزم ومجاهدة يقول الحق سبحانه ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ « العنكبوت : ٦٩ » والجهاد النفسى هو أقوى ما يواجهه الإنسان من معاناة ، لذلك يسميه الرسول صلى الله عليه وسلم الجهاد الأكبر .

لذا نجد أن الحق سبحانه قد حدد الجزاء والثواب بقدر يتناسب مع مجاهدة النفس ، يقول الحق سبحانه : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ « الشمس : ٧ - ١٠ » ، فالنفس بما تحويه من خير وشر قد تظل حبيسة حتى تهزم شرورها ويطلق عنانها ، عندئذ ترى الحق حقا والباطل باطلا ، ومن ثم تتجه إلى أعمال فنية ملتزمة أى ترقى بأفكار ووجدان المتلقين لها من زوايا عديدة .

كذلك نجد قول الحق سبحانه ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ « الفجر : ٢٧ - ٢٨ » وهنا نجد أن كل الرضا من رب العزة جل وعلا ، ومن ضمير مطمئن على أعمال فنية تم اختيارها من منظور يرضى الله عنه ، ومن مكنون نفس خيره ، ومن عمق فكر ، ومن أصالة وجدان ومن عزيمة صادقة تحفز الهمم نحو اختيار الأعمال الفنية الملتزمة .

الركيزة الثانية : الهدف الفنى الصالح :

يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله إن : « مذهب المالكية ومثله مذهب الحنابلة ينحوان ناحية الحكم بأن أوامر الدين والأخلاق والقوانين تتجه إلى إسعاد الناس ، وأن المنفعة أو

المصلحة تصلح مقياسا ضابطا لكل ما هو مأمور به فى الدين أو منهى عنه ، كما أنها فى نظر الفلاسفة الذين يقررونها مقياس الرذيلة والفضيلة فى الأخلاق والعدل والظلم فى القانون « وذهب الطوفى الحنبلى إلى القول بأن المصلحة أصل من أصول التشريع ، إلى جانب النص والإجماع ، كما تقدم السنة على القرآن بطريق البيان » (١١) .

لذا فإن الأعمال الفنية الملتزمة هى : تلك التى لها مضامين تحوى القيم الأخلاقية والحضارية المجتمعية التى ترقى بالفكر وتستنير بها العقول ويستقر لها الوجدان .

أى أن لهذه الأعمال صفة النفعية والبقاء على عكس الأعمال التى ينتفى عنها ذلك الهدف الضرورى حيث يكون مصيرها الاضمحلال والتلاشى .

وفى الآية الكريمة ما يحثنا على تحقيق النافع والصالح من الأعمال ، يقول الحق سبحانه ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ « الرعد/١٧ » .

ذلك أنه فى غمرة ماديات العصر واضمحلال الأخلاقيات وانزواء القيم ، قد يتشتت الفكر وتبهر الأعين وقد يصعب تحقيق الهدف الصالح من الأعمال الفنية بدون الجهاد النفسى وهو الضمير الدينى الحى ، وهذا الضمير يصنعه الإحساس الدائم برقابة الله على الإنسان ، وهيمنته المطلقة على أعماله فيدقق الفنان فى اختيار أعماله استشعارا لقول الحق سبحانه ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور... ﴾ « غافر/١١٩ » والعمل يكون صالحا أو فاسدا بحسب الهدف الذى يتوخاه صاحبه ، ومن هنا كانت التعاليم بتزكية النفس وتطهير الروح من النية الفاسدة ، والهدف الطالح (١٢) .

ولعل فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ما يحفزنا على تحقيق الهدف الصالح من أعمالنا ، يقول « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (رواه مسلم) .

★ - أما جمهور العلماء فقد رأوا أن الإيمان أمر مركب من عدة أجزاء أو أصل تفرعت عنه عدة فروع وهو على هذا مركب من : التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان ، ينظر فى ذلك : محمود حلاوى وآخرين ، الفكر التربوى الإسلامى ، الكتاب الثانى ، دار المقاصد الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠١هـ .

وتحقيق الهدف الصالح لن يتم إلا بناء على فكر واع لا تجرفه الانحرافات ولا يمتزج فيه العقل بالهوى أو الحق بالباطل وكذلك عن إيمان صادق (*) .

والآية الكريمة تحثنا على تحقيق الهدف الصالح ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ... ﴾ « الكهف : ١١٠ » . وفى هذا الهدف سيتحقق التكامل بين جانبين القيم المادية وغير المادية ، يتحقق الكسب المادى الناتج عن حب العمل واتقانه والاختيار والإعداد الجيد له ، وكذلك تتحقق المثوبة والجزاء الأوفق لمجاهدة النفس فى الدنيا والآخرة ، وتطمئن النفس فلا تتغلب النزعة المادية على النزعة الروحية ، بل تتكامل الطاقات الروحية والمادية لتحقيق الهدف . الأمر الذى يشكل أعمالا فنية متوازنة توفق بين الجانبين توفيقا منسجما ، ونود أن نشير إلى أن تحقق هذا المعيار يرتكز إلى الروح والضمير المطمئن من ناحية وإلى العقل من ناحية أخرى وهى أجنحة للوصول إلى عمق الأصالة الوجدانية وصدق التجسيد الفنى مصداقا لقوله سبحانه ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها . . ﴾ « الحج / ٤٦ » .

التوصيات

١ - إن إعادة بناء المجتمعات الإسلامية يتطلب تعميق أخلاقيات الإسلام ومفاهيمه المتميزة ، كأسلوب تربوى شامل يهدف إلى بناء المسلم إسلاميا تسهم فيه جميع المناهج الدراسية بما فيها المحتوى الذى يتعلق بالتذوق والحث الفنى . وهو مجال رحب لكل مجتهد فى تخصصه لاقتراح محتوى يحقق ذلك المطلب الهام .

٢ - فتح باب الاجتهاد لإعادة كتابة صياغات الأعمال الفنية لكى يحتويها أو تحتوى أطر من الفكر الإسلامى ويتضافر معها التقنية الفنية الحديثة لكى يتحقق المغزى من الأعمال الفنية الملتزمة .

٣ - هناك دور ضخم يمكن لوسائل الإعلام المختلفة أن تؤديه فيما يتعلق بالصحوة الفكرية العقائدية وخاصة فى ظل التقدم العلمى الضخم فى مجالات الاتصالات بحيث يمكن أن تساهم جوهريا فى تحقيق هذا الهدف فى إطار من التخطيط العلمى.

٤ - إن الحركة الفنية فى مجملها لم تحد عن منهج الرشد خلال مسارها الطويل ، إلا فى بعض منها ضئيل ، ولا شك أن ما يملكه أصحاب الرأى والفكر من رصيد ضخم « محاور » لتأصيل الفنون فى إطار من الفكر الإسلامى سيساهم فى تعميق مدخلات المنهج الإسلامى فى هذا المجال الهام .

المراجع والهوامش

١ - د . أحمد هاشم ، وآخرين من هدى النبوة ، جامعة الأزهر ، ١٩٩١ ، ص ٧ .

٢ - أحمد عبد الرحمن إبراهيم ، الفضائل الخلقيه فى الإسلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة ، ١٤٠٩هـ ، ص ٤٥ - ٥٠ .

٣ - الحكيم والبغوى وأبو نعيم ، الجامع الصغير ، دار الكتب العلمية ، ج ١ ، ص ١٧ .

٤ - محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، تفسير سورتى الأعراف والأنفال ، دار الرشيد ، سوريا ، « بدون تاريخ » ، ص ٤٨٣ .

٥ - محمد عبد الوهاب فايد - التربية فى كتاب الله ، دار الاعتصام ، سنة ١٩٧٩ ، ص ١١ .

٦ - محمد الدسوقى ، خصائص الفقه الإسلامى ، مجلة الوعى الإسلامى العدد ٢٨٦ ، ١٩٨٨ ، ص ٣٨ .

٧ - سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، المكتبة العالمية بيروت ، لبنان ، ص ٧٨٤ .

٨ - محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، تفسير سورة طه ، دار الرشيد ، سوريا (بدون تاريخ) ، ص ٢٣٧ .

٩ - البيهقى فى شعب الإيمان . عن عائشة . فى السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ، الجامع الصغير ، المجلد الأول ، ص٢٨٤ ، حديث رقم ١٨٦١ .

١٠ - الطبرانى فى الكبير ، عن الحسن بن على - فى الجامع الصغير ، المجلد الأول حديث رقم ١٨٨٩ ، ص ٢٨٧ .

١١ - نقلا عن أحمد عبد الرحمن إبراهيم ، الفضائل الخلقية فى الإسلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

١٢ - محمد تقى المدرسى ، من هدى القرآن تفسير سورة آل عمران ، المركز الثقافى الإسلامى - طهران ، ١٤٠٣ ، ص ٥٥ .